حياة رحالة مطبوعة

من كتاب للسيدة « فرايا ستارك » علمت لأول مرة أن نسب الزعيم الهندى المشهور « آقا خان » كان موضوع قضية فصلت فيها محكمة بومباى العليا سنة ١٨٦٦ ، وأن إثبات نسبة « آقا خان » إلى حسن بن الصباح الزعيم الباطنى المشهور باسم شيخ الجبل كان هو مدار تلك القضية أو كان هو الغرض المهم من عرضها على المحكمة العليا ، لوقوع الخلاف على العشر الذى يستحقه وارثو حسن بن الصباح من نذور أتباع الطريق .

أشارت السيدة « فرايا » إلى هذه القضية فى كتابها عن « وادى الحشاشين » أو الوادى الذى أوى ابن الصباح إلى قلعة من قلاعه ليعتصم فيها من خصومه الأقوياء ، وقد كان يرسل أتباعه من هناك ليقضى على من شاء من أولئك الخصوم ، واشتهر أتباعه باسم الحشاشين ، لزعم بعض المؤرخين أنهم كانوا يتعاطون الحشيش بتدبير من أئمتهم ، ثم يشهدون فى غيبوبتهم مناظر الرقص والسماع فيتوهمون أنهم نقلوا إلى الفردوس وهم بقيد الحياة ، ويدخل فى روعهم أن طاعة رئيسهم ترفعهم إلى عليين بعد الموت فلا يترددون فى بذل حياتهم طوعًا لكل أمر يتلقونه من ذلك الرئيس ، ويرى بعض المؤرخين أن كلمة Assassins تصحيف كلمة حسنيين وليست تصحيفًا لكلمة الحشاشين .

كان ابن الصباح يطلق على قلعته اسم « الهاموت » ويفسرونها بمعنى النسر المعلم ، فهى نسر لعلوها الشاهق ، وهى معلم لأن الباطنية يعتقدون أن الكتب الدينية لا تغنى عن تعليم الإمام ، وأن الأرض من أجل ذلك لا تخلوا أبدا من إمام ظاهر وإمام مستور .

وتوافق حروف « الهاموت » وهى الألف واللام والهاء والألف والميم والواو والتاء حساب أربعمائه وثلاث وثمانين ، وهى السنة التى أوى فيها ابن الصباح إلى ذلك المعقل المنيع .

وقد ألممت بأوصاف كثيرة لذلك الموقع ، ولكن الوصف الذى اشتمل عليه كتاب السيدة فرايا هو أقوى تلك الأوصاف وأدلها على طبيعة المكان . فمن قرأه عرف حقًا أنه المكان الذى يليق بعقل ابن الصباح ، وأنه حتى اليوم لا يأبى أن يحتله ابن صباح جديد ، وأن يجد حوله من يقبلون عليه .

والسيدة فرايا قد ألفت عدة كتب فى الرحلة إلى البلاد الشرقية آخرها كتابها « الشرق هو الغرب » الذى تكلمت فيه طويلا عن مصر فى السنوات الأخيرة ، وأرادت - كمايبدو من عنوانه - أن تصحح كلمة رديارد كبلنج التى قال فيها « إن الشرق شرق والغرب غرب ، ولا يلتقيان » ولا نظنها نجحت كل النجاح فى هذه الرغبة ، لأنها لا تزال ترى الشرق بعين لا يراه بها الشرقيون . أما كتابها الأخير الذى صدر بعده فليس من كتب الرحلة إلى الشرق بل هو ترجمة حياتها وتلخيص رحلاتها فى جميع البلدان .

كنت أقرأ الكتب التى تصف بها السيدة رحلاتها الشرقية والغربية . فأعجب لهذه المشقة وهذه المجازفة ، ولا يقنعنى فى تعليل هذه النزعة للرحلة الدائمة أن السيدة تعمل فى السياسة ، فإن النزعة إلى الرحلة الدائمة طبيعة والعمل فى السياسة صناعة ولو لم تكن هذه الصناعة موافقة لتلك الطبيعة لما كانت الرحلات ولا كانت الأعمال .

فى صدر كتابها عن وادى الحشاشين تقول ما يفهم منه أنها ترجع بالسر كله إلى هدية من هدايا عيد الميلاد تلقتها وهى فى التاسعة من خالة تحب الأخيلة والأحلام ، وكانت الهدية هى كتاب ألف ليلة وليلة الذى يعرف فى اللغة الإنجليزية باسم « الليالى العربية » فكان هو الحافز لها بعد ذلك إلى درس العربية والرحلة إلى الشرق العربى والعمل فيه .

على أنها تعود فى سيرة حياتها التى أصدرتها أخيرًا فتقول : « إننى بدأت فى تعليم اللغة العربية سنة ١٩٢١ .. ولست أذكر ما دعانى مباشرة إلى تعلمها ..

ولكنى اعتقدت أن أمورًا جديرة بالاهتمام وشيكة أن تحدث بجوار ينابيع النفط ، وقد كان ذلك فى سنة ١٩٢١ ولا يزال التقدير صحيحًا حتى اليوم » .

بيد أن كثيرًا من الناس قرءوا « ألف ليلة وليلة » فى صباهم ، وكثيرًا من الناس يعلمون شأن النفط فى السياسة الدولية ، ولكنهم لم يخرجوا فى حياتهم رحالين جوابين للآفاق من أجل هذا أو ذاك ، ويعنينا أن نلاحظ هنا فعل السليقة الخفى المجهول الذى تستجيب له النفس الإنسانية وهى تحسب أنها تختار ما تريد ، فلا سبب لقيام السيدة فرايا بجميع تلك الرحلات إلا أنها مطبوعة على الرحلة ، ثم تأتى أغراض الرحلة وتوفيقاتها بعد هذا الحافز الأصيل .

للنفس الإنسانية قلق يتراءى على ثلاثة ضروب : قلق السائح ، وقلق المتصوف ، وقلق الشاعر ، ولا مشابهة بينها فى الطبيعة وإن كان كل قلق منها نوعًا من جيشان النفس وكراهة الجمود والاستقرار .

فقلق السائح يجد مصرفه فى الإحساس الواقعى بأضداد الحياة ونقائضها ، فيدفع السائح نفسه بنفسه إلى حيث يتداوله الحر والبرد والظمأ والرى والتعب والراحة والخوف والأمن واللهفة والاطمئنان ، وهمه الأول هو الرحلة لذاتها دون ما تتأدى إليه فى نهايتها ، ولا تكاد تنتهى حتى يشرع فى غيرها ليعود إلى حسه فيشغله بتلك الأضداد والنقائض ويعالج قلق النفس بقلقات الحركة والتشوف والانتظار .

أما قلق المتصوف المطبوع فمصرفه فى الإيمان بعقيدة أو دعوة أو بطل أو واجب يفرضه عليه بطله أو يفرضه عليه اعتقادة .

وأما قلق الشاعر المطبوع فمصرفه فى صور الخيال ، وهى غنى له عن حركة الرحلة وحركة الجهاد .

وكل ضرب من ضروب القلق الذى تعانيه النفس الإنسانية فهو واحد من هذه الضروب أو مزيج منها ، إلا أن يكون طموحًا إلى غاية معلومة ، وليس الطموح إلى المعلوم كالقلق الذى يجهل صاحبه نفسه ما يبتغيه ويرمى إليه .

تكاد هذه السليقة الخفية تقفز من الوعى الباطن إلى الفكرة الواضحة فى

بعض كتابات السيدة فرايا ستارك ، فهى فى كتابها « أبواب الجنوب فى جزيرة العرب » تقول : « لو سئلت عن أوفق شىء فى الحياة لقلت إنه هو سرور المقابلة بين الحال ونقيضه . وما من أحد يتخيل مخلوقًا يمسك قيثارًا ويستقر فى جنات النعيم أبدًا إلا أن يكون ملكاً من الأملاك . أما المخلوق الآدمى فلا مناص له من التغيير ، ومن هنا سحر الواحة ، وما هى إلا رقعة من الخضرة لا يكترث لها لولا ما يحيط بها من الرمال » .

وأدل من هذا على هوى الرحلة قولها فى كتابها عن وادى الحشاشين : « إن الذين لم يختبروا هذه الأمور لا يجدون شيئا من السرور يستزيده الإنسان فى عكوفه على منظر ينفرد برؤيته . كلا ! فماهم على حق فى هذا ، وإنما هو سرور يحدق بصاحبه لا محل فيه للتفكير والتعليل ولا ريب فى صدق موقعه . وفيه شىء من طبيعة العشق وقوته يجب أن يحتفظ بسره ويدنسه من يتطفل عليه .. » .

ومن قرأ الترجمة التى كتبتها السيدة فرايا ستارك بقلمها وأطلقت عليها اسم طوالع سائحة Traveller's Prelude أيقن أن صاحبة هذه الترجمة قد ولدت بوراثة خاصة . فإن جدها الكبير فنان مصور ينتمى بنسبه إلى وطنين أحدهما بولونى والآخر ألمانى ، وما هو إلا أن التقى بالديوك أف كمبردج الإنجليزى فى بعض سياحاته حتى قبل أن يصحبه إلى لندن ومعه أسرته بكل ما اشتملت عليه ، ولها جدة فرنسية من النبلاء هجرت وطنها خوفًا من الثورة وأقامت فى البلاد الألمانية ، وفى هذه السلالة فنانة لم تشتغل بالفن ولكنها كانت تشتغل بتعليم الدروس الموسيقية .

ولا نزعم أن هذه الوراثة تعليل مطرد لكل سليقة من سلائق الرحلة والسياحة ، ولكننا نقول إننا إذا عرفناها لم نستغرب أن تنشأ منها وريثة تختار لها طريقًا فى الحياة غير الطريق الذى تتابع عليه الألوف والملايين من بنات حواء .

ومهما تكن دواعى الوراثة والبيئة التى اشتركت فى تكوين هذه العبقرية « السياحية » فالعبقرية السياحية ماثلة أمامنا فى كتب السيدة فرايا من رحلة سورية التى دبرتها بعشرين كلمة عربية إلى رحلة الشتاء فى بلاد العرب

الجنوبية ، حيث كانت تدرس الأدب وتترجم شعر علقمة وابن جريج . ويرى القارئ من هذه الكتب أن السائحة المطبوعة تحسن كتابة الرحلات كما تحسن القيام بها والصبر على مشقاتها ، ولعلنا لا نعتسف المجاز إذا قلنا إن ترجمة حياتها التى ظهرت أخيرًا قد امتزج بها أثر من طبيعة الرحلة والكتابة عنها فجاءت بأسلوبها وترتيبها كأنها رحلة فى الزمان تنافس إخوتها الرحلات فى عالم المكان .

وعلى غلاف كتابها « شتاء فى بلاد العرب » كلمة تقدير للسير رونالد ستورز يقول فيها : « إنها فى طبقة اللادى آن بلنت وجرترود بل فى فن الرحلة على الأقل ولكنها تفوقهما فى طبقة الكتابة » .

والتقريظ منصف والمقارنة صادقة ، ولا نضيف إليهما إلا أن نعود فنقول إن الكاتبة لم تستطع أن تنظر إلى جميع الأمور بالعين الشرقية ولا سيما فى حكمها على بعض الرؤساء وبعض الأطوار الاجتماعية ، ولولا أننا فى هذه المقالات نتجنب السياسة من غير ناحية البحث والدراسة الأدبية لتوسعنا فى بيان هذه الملاحظة ، فهل اختلف تقدير السيدة فرايا ياترى لأن الشرق شرق والغرب غرب كما قال رديارد كبلنج فى القرن الماضى ؟ لا نعتقد أن اختلاف التقدير يرجع حتمًا إلى اختلاف الوجهة العقلية بين الشرقيين والغربيين ، فقد يحدث مثل هذا الاختلاف فى كتابة الإنجليز عن المسائل الألمانية وكتابة الإيطالى عن المسائل الأسبانية ، فلعلها إذن نظرات السياسة فقد اقترنت بنظرات الرحالة ، فلمحت الأمور من زاويتها التى تضبطها أدوات الرصد عند الرحالين .

من هو شكسبير ؟

مهداة إلى الشاعر المجيد الأستاذ عزيز أباظة باشا

من أقوى المعارك الأدبية التى احتدمت فى ميادين النقد تلك المعركة التى تدور حول حقيقة شكسبير ويذهب فيها فريق من النقاد إلى اتهامه بالانتحال والادعاء ، ويقابله الفريق الآخر بتعظيم شأنه وتوكيد نسبة الروايات والقصائد إليه .

ومن أعجب الطرائف فى هذه المعركة أن المتعصبين لشكسبير هم الذين يجهدون جهدهم ويحتالون حيلتهم لتسجيل أخطائه وإثبات جهله بالجغرافية والتاريخ فضلا عن مسائل العلم والفلسفة . إذ كان محور النزاع قائما على أن الروايات والقصائد التى تنسب إلى شكسبير لا تصدر عنه لأنها تدل على ثقافة واسعة ونشأة علمية عالية واطلاع على أحوال القارة الأوربية من طريق الرحلة ومن طريق الدراسة ، فأنصار شكسبير يقولون لمنكريه كلا . بل هى روايات وقصائد تشتمل على أخطاء كثيرة لا تصدر من العلماء المستبحرين فى المعارف العليا ، وإنما الفضل فيها فضل الطبع والعبقرية الموهوبة ، وليس المهم فيها ما تعلمه المؤلف من المدرسة والكتاب .

وإن كان شىء أعجب من هذا فى تلك المعركة الحامية فهو العناء الذى يتجشمه المنكرون لشكسبير فى سبيل تصحيح أخطائه وإحالاته التى يستند إليها المتعصبون له والجازمون بنسبة الروايات والقصائد إليه دون غيره .

مثال ذلك أن شكسبير يذكر فى روايته « السيدان من فيرونا » أن أحد أبطالها سافر من فيرونا إلى ميلان فى سفينة ، فيقول المتعصبون له إن هذا الخطأ

الجغرافى دليل على تأليف شكسبير للرواية ، ويرد عليهم المنكرون بما ينفى هذا الخطأ ويثبت أن المدينتين وصلت بينهما قديماً قناة صالحة للملاحة ، وأن المسافرين كانوا يفضلون طريق الماء على طريق البر لكثرة اللصوص على اليابسة ، ويستشهدون بكلمة كتبها كارلو بانيانو فى سنة ١٥٢٠ يقول فيها إن « ميلان » على بعدها من البحر تعتبر من الموانى البحرية . ولم يخطئ شكسبير حين تكلم عن المد والجزر فى بعض الأنهار ، فقد جاء فى رسالة « لازابلاديست » عن رحلتها من مانتوا إلى فرارا فى سنة ١٥٠١ أن المد كان يعاون الريح فى تعويق السفينة .

كذلك لم يخطئ شكسبير حين ذكر أن السفينة جنحت على شواطئ بوهيمية . فإن مملكة بوهيمية فى عهد أوتكار الثانى كانت تمتد من البحر الأدريانى إلى البحر البلطى ولم يكن ثمت عجب فى جنوح سفينة على شواطئها .

والأنصار لا يقلون صبرًا على البحث عن خصومهم المنكرين ، فقد تناولوا مؤلفات العصر كله ليستخرجوا منها أدلة تثبت أن أقوال خصومهم تصدق على جميع المؤلفين كما تصدق على شكسبير ، وأن التشابه بين عبارات شكسبير وعبارات باكون له نظائر كثيرة تظهر عند المقابلة بين مقالات مونتانى المترجمة عن الفرنسية ومقالات باكون المكتوبة بالإنجليزية ، فهل يجوز من أجل هذا أن ننسب مؤلفات العصر كله إلى باكون وننكر الأصالة على جميع مؤلفيه ؟

ومن الباحثين من وجد فى كتابات النبلاء روتلاند ودربى وأكسفورد شبهات وقرائن تسوغ نسبة الروايات والقصائد إليهم كما تسوغ نسبتها إلى باكون ، وهكذا يجتهد كل فريق فى تسفيه مزاعم الفريق الآخر ، ولا يزال المتعصبون لشكسبير أرجح كفة من منكريه ومتهميه .

وعندنا أن مسألة الأخطاء لا تذهب بنا بعيدًا فى فض هذا الإشكال كما قلنا فى كتابنا عن فرنسيس باكون : « فقد أخطأ باكون مثل تلك الأخطاء التى أحصيت على شكسبير ، فقال فى الطرائف والأجوبة إن ثمستوكليس أصاب حين قال لملك الفرس إن الكلام كمنسوجات آراس حين تفتح وتعرض للأنظار لترى فيها النقوش والرسوم . أما الفكر فهو كتلك المنسوجات وهى مطوية فى

الصرر والكارات » .. وأين منسوجات آراس يوم ذاك فى عهد ثمستوكليس وحروب الفرس واليونان .

كذلك أخطأ شابمان العالم الأديب مترجم إلياذة هومير إلى الإنجليزية حين ألف روايته عن متسول الإسكندرية ، فقد ذكر فيها المسدسات والتبغ على عهد البطالسة . وأجرى اسم الإله أوزيريس متبوعًا بالدعاء للسيد المسيح .

فلا فائدة من الاعتماد على الأخطاء لإثبات علم باكون أو إثبات جهل شكسبير ، ولا فائدة كذلك من الاعتماد على التشابه بين العبارات ، فإنها قد تتشابه فى العصر الواحد بغير سرقة ولا انتحال ، وقد تدل على أن باكون هو الذى اقتبس من شكسبير كما يرى الأستاذ جير الدماسى Massay الذى يعتقد أن أفكار شكسبير مبثوثة فى كتابات باكون !!

ومهما يكن منْ تشابه العبارات فليست معجزة الرواية المسرحية فى الكلمات بل فى خلق الشخوص التى تتحدث بتلك الكلمات ، وقد يحفظ الإنسان كلمات المشهورين وغير المشهورين الذين يعيشون معه فى عصره ولا يستطيع مع هذا أن يجمع منهم رواية أو يصنع منهم شخصية يضعها فى موضعها من الرواية . فإذا ثبت التشابه بين مئات العبارات فى كلام باكون وكلام شكسبير فالمشكلة باقية بحذافيرها بعد ثبوت هذا التشابه الكثير ، وتلك المشكلة هى إثبات القدرة على خلق الشخصية ورسم الوحدة فى موضوع الرواية ، وهذا دون غيره هو فن الرواية المسرحية وعمل الشاعر الخلاق المقتدر على التخيل والابتداع .

بدأت هذه المعركة فى البلاد الإنجليزية عند منتصف القرن الثامن عشر ولم تلبث أن تعدتها إلى ألمانيا وفرنسا وبلاد الشمال والبلاد الأمريكية حيث اشترك فيها الأدباء والمؤرخون وجمهرة القراء وجرى فيها من التحقيقات ما لم يجر فى قضية أخرى ، وظلت ناشبة تهدأ حينًا بعد هزيمة أحد المعسكرين وتعود إلى شدتها على الأثر كلما استعد المعسكر المهزوم بعدة جديدة ، ثم قامت الحرب العالمية الكبرى فسكن الفريقان هنيهة وهم يترقبون ويتربصون إلى نهايتها ، فما هو إلا أن وضعت أوزارها حتى صدر كتاب « الدراسة التشريحية » لباكون وشكسبير للأستاذ ملسوم Melsome فى سنة ١٩٤٥ ثم تلاه كتاب « الملقب

بشكسبير » للأستاذ كلودسايكس سنة ١٩٤٧ ولا يزال المدد يتوالى على المعسكرين بالبحوث والتعليقات .

فى هذه الأثناء كان عشاق شكسبير لا ينقطعون عن الحج إلى ضريحه فى القرية المتواضعة ولا يحفلون بالمعركة الناشبة حول ذلك الضريح الذى استراح فيه جثمان الشاعر الخالد وأبى أن ينقل منه ولو إلى مراقد الخالدين فى مقبرة وستمنستر المشهورة .

ولعل الشاعر العربى الوحيد الذى زار الضريح فى هذه الفترة هو صديقنا الأستاذ عزيز أباظة باشا صاحب المسرحيات الشعرية التى احتفل بها العالم العربى فى السنوات الأخيرة ، وقد أوحى إليه المزار قصيدة حكيمة تفضل بإهدائها إلينا وقال فى إحدى مقطوعاتها :

أعجزت قارعة العقو ل ورعتهن بما قرعته
وشغلت من قاسوا مدا ك بمن خلفت ومن سبقته
قالوا فما تقوى العبا قر أن تجىء بما خلقته
هو جهد أفذاذ البيا ن لقفته ثم انتحلته
اضحك من الأقزام وار ث لدائهم فلقد عرفته
قد يجمع الله الورى فى شاعر فحل فكنته

وقد أجبت هذه التحية بقصيدة من وزنها قلت فى إحدى مقطوعاتها :

ذاك الحكيم العبقر ى أكان يعلم منتهاه ؟
عرف الكنود طبيعة فى دهره وشكا أذاه
اليوم ينكر معشر فى كل فضل ما ادعاه
نحلوا « لبيكن » حقه والله يعلم من حواه
نجم سرى فى سمته والنجم لا يخفى سراه
لو كان « بيكن » ربه أتراه يخجل من سناه ؟

نعم . أتراه كان يخجل من مفخرة الأدب فى جميع العصور ؟

قد يقال إن نبلاء الانجليز فى عصر باكون وشكسبير كانوا على مذهب

حكمائنا الذين كانوا يرون « أن الشعر أدنى مروءة السرى وأسرى مروءة الدنى » .. ولكن كيف نفهم أن إنساناً يشغل نفسه عشرين سنة بعمل لا يظهره ولا يتشرف بنسبته إليه ؟ لو أنها رواية واحدة لقلنا إنها نزوة وانتهت إلى غير عودة ، ولكنها عشرات من الروايات والقصائد تستغرق الجهد لو انقطع لها مؤلفها وما كان باكون بالمنقطع عن الأعمال ! فلماذا هذا الولع الذى لا يكتفى برواية أو اثنتين ولا يرعوى بعد سنة أو سنتين ؟ إن باكون هو الغنى وشكسبير هو الفقير ، فلا يقال إن باكون كان يؤجر على عمله بالمال ، ولا محل لبذل المال فى عمل لم يكن مما يشرف السراة الأغنياء فى ذلك الزمان .

وإذا فهمنا هذا الولع الذى لم يعرف له نظير قط فكيف نفهم خفاء السر عشرين سنة فى البيئة الأدبية المحدودة ؟ وكيف يجهل أديب ينافس شكسبير مثل (ابن جونسون) أن الرجل جاهل مدع فيكتب عنه ما كتب فى مقدمته وتقريظه ؟

إنها شهرة نبشها النقاد وكان الرجل يخشى أن ينبشوا جثته فى مثواه .

وعزاؤه أنه قد بلغ القمة التى يتساءل عنها المتسائلون ، فلو أنه توسط فى عظمته لما استكثروها عليه !

نعم وقفت الشمس

من النادر أن تثار فى دوائر الثقافة العلمية ضجة كتلك الضجة العنيفة التى أثارها فى الولايات المتحدة كتاب العالم الطبيب الروسى الدكتور فيلوكفسكى الذى سماه « عوالم تتصادم » فكان من الحق اسمًا وافق مسماه . لأنه ميدان يتصادم فيه عالمان من عوالم البحث والنظر . بلغ من اصطدام الأفكار فيه أن يعتبره بعض النقاد فتحًا جديدًا فى العلم والتاريخ . ويعتبره بعضهم حديث خرافة ووهمًا من أوهام الخيال لا يليق بالعلماء .

وحسب القارئ أن يلم بفهرس مجمل للمسائل التى تناولها الكتاب بالبحث العلمى ليدرك أسباب هذه الضجة العنيفة ويدرك أن الموضوع حقيق بها وبما هو أضخم منها فى الدوائر العلمية على الخصوص . بل حسب القارئ أن يعلم أن الكتاب يقلب تاريخ الكرة الأرضية وتاريخ المنظومة الشمسية رأسا على عقب فى رأى العلماء . ليدرك أنه يتكلم لنا عن تصادم العوالم على نحو لم يسبق له مثيل .

كان الناس يقرءون فى تاريخ هيرودوت أن كهان المصريين أخبروه بضامين بعض السجلات الفلكية المحفوظة لديهم ، فعلم منها أن الشمس كانت فيمامضى تشرق من حيث تغرب وتغرب من حيث تشرق ، وأن موقعى الشروق والغروب قد تحولا غير مرة فى خلال عشرة آلاف سنة غبرت قبل مولد هيرودوت .

كان الناس يقرءون هذا فلا يطيلون التأمل فيه ولا يلبثون أن يتهموا هيرودوت بالتخريف والغفلة ، لأنه كلف نفسه الإصغاء إلى مثل هذا الهراء .

فماذا يقول الدكتور عمانويل فيلوكفسكى فى مثل هذا الهراء ؟ يقول إنه معقول جدًّا ، بل راجح فى تقدير الواقع . وإن كثيرًا من القرائن التاريخية والفلكية تؤيده ولا تنفيه .

وكان الناس يقرءون أن الأقدمين أخطأوا فى ضبط التقويم وحسبوا السنة ثلاثمائة وستين يومًا مُجَرَّمات بغير كسور .

فماذا يقول العالم الطبيب فى هذا الرأى المتفق عليه ؟ .. يقول إن مدار الأرض لم يكن على الدوام فى موضعه هذا الذى نرصده فى العصور الأخيرة ، وإنه تحول من الشكل المستدير إلى الشكل الإهليلجى فاتسع وطال وزادت أيام الدورة حول الشمس تبعًا لهذا الاتساع . فليس من الخطأ أن تحسب السنة قبل عشرة آلاف سنة ثلاثمائة وستين يومًا بغير كسور .

وكان الناس يقرءون فى الكتب الدينية أن الشمس وقفت فى عهد يوشع بن نون نحو يوم كامل فيصدق المؤمنون بالعقيدة الدينية ويحسب المتحدثون باسم العلم أنها ظاهرة نفسيه لا علاقة لها بالحقائق الفلكية ، لأنها على حسب الحقائق المقررة عندهم فى علم الفلك مستحيل .

أما صاحبنا الطبيب العالم فيقول إنها ليست بالمستحيل وإن المنظومة الشمسية لا تزال سرًّا غامضًا يجهله العلماء سواء فى تعليل نشأتها أو اختلاف حركات السيارات فيها . وإن التعليلات الكثيرة لا تفسر لنا دورة بعض الأقمار من المغرب إلى المشرق ودورة بعضها الآخر من المشرق إلى المغرب . ولا تفسر لنا العصور الثلجية على ظهر الكرة الأرضية ولا العصور التى هلك فيها الحيوان فجأة فى بعض الأقاليم التى لم تكن معرضة للثلوج فى الأزمنة القديمة .

ويستخرج الدكتور فيلوكفسكى من مراجعاته الكثيرة للأرصاد فى الصين والمكسيك دليلًا قويًّا على حدوث كارثة كونية سبقتها كوارث أخرى قبل عهد الميلاد بعدة قرون ، وبعض هذه الكوارث موصوف فى كتب العبرانيين وأوراق البردى المحفوظة من التاريخ المصرى القديم .

ويرى الدكتور فيلوكفسكى أن هذه الأوصاف تطابق ما يحدث عند التقاء الكرة الأرضية بجرم سماوى مشبع بالكهربائية المغناطيسية على حسب التقدير العلمى المتفق عليه .

فالأقدمون الذين وصفوا تلك الكوارث لم يكن لهم علم بقوانين الكهرباء

وقوانين الحركة ولا بتركيب الأجرام السماوية وتركيب المذنبات منها على الخصوص . ولكن الحوادث التى ذكروها تطابق النتائج التى يقررها العلم لاصطدام الأرض بالمذنبات وما شاكلها من أجرام القبة الزرقاء .

ومن هذه النتائج أن يتحول القطبان عن موضعيهما . وأن تنحرف الكرة عن مدارها وأن تتوقف عن الدوران بتأثير الجذب الجديد الذى طرأ عليها . وقد يعطل هذا الجذب قانون الاندفاع عن المركز عند توقف الحركة .. لأنه يقابله بما يشله أو يلزمه الحيدة إلى حين .

والمذنبات كما يقول علماء الفلك والطبيعة تتركب من رأس قوامه الصخور والأجسام الصلبة وذنب قوامه الغازات والكربون وقد يتألف النفط من امتزاج الكربون ببعض هذه الغازات .

فإذا حصل الاصطدام بين الكرة الأرضية وبعض هذه المذنبات فالصخور تتساقط والمطر الأسود يهطل من الفضاء والماء يصطبغ بلون الدم ويموت ما فيه من الأحياء وتتعفن الأجسام فتعيث فيها الديدان والحشرات ، ويصاب الناس بالحكة المؤلمة فى جلودهم لما يمسها من تلك الغازات الكاوية ويصدق على هذه الكارثة كل ما قيل عن الضربات والأوبئة التى وصفت فى أوراق البردى والكتب القديمة . ومنها ما كشف عنه المنقبون فى آثار أمريكا الوسطى ، حيث قامت فى العصور الغابرة حضارة من أعرق الحضارات الإنسانية .

وليس تعويق السيارات عن الحركة بالشىء المستحيل ولا بالشىء النادر فى المنظومة الشمسية فضلا عن غيرها من آفاق السماء .

فالمعلوم أن المذنبات الدورية سيارات تجرى فى فلك المنظومة الشمسية وتخضع للحساب الدقيق فى الزمن الحديث . ولكن هذا الحساب الدقيق لا يمنع أن تختلف المدة التى تتم فيها دورتها عدة سنين كما يحدث فى دورة المذنب المشهور باسم مذنب هالى الذى شوهد من جو الأرض قبل أربعين سنة .. فإن متوسط المدة المقدرة لتمام دورته سبع وسبعون سنة . ولكنه يعود مرة بعد تسع وسبعين سنة وشهور ويعود مرة أخرى بعد أربع وسبعين سنة وشهور . ويطرأ عليه التعويق أو التعجيل على حسب الجاذبية التى يتعرض لها من جانب السيارات

كلما اختلفت مواقعها فى طريقه . ومن السيارات ما يستغرق فى مداره حول الشمس مدة أطول من هذا المذنب فى رحلته الدورية .

فلا الظواهر الفلكية ولا الظواهر الجوية التى وصفها الأقدمون فى كتبهم بالأمر المستحيل . وليس بالمستحيل كذلك أن تقف الأرض أو تشرق الشمس من غير مشرقها الذى عهدناه . أو أن تقع ضربات الزلازل والظلمة فى النهار واصطباغ الماء بلون الدم وامتلاء البلاد بالحشرات والديدان وتساقط الحجارة من السماء . وغير ذلك من الظواهر التى تقع من جراء الاصطدام بين الأجرام ولم يكن للأقدمين علم بالعلاقة بينها وبين ذلك الاصطدام .

ويرجح صاحب الكتاب أن الصدام الأخير الذى حدث قبل الميلاد بنحو سبعة قرون قد كان صدامًا بين الكرة الأرضية وكوكب الزهرة التالية لها فى موقعها وهى لما تزل فى ذلك الحين مذنبًا جامحًا فى الفضاء . ثم عدل بها الصدام إلى الانتظام فى المجموعة الشمسية حيث تناسقت معها ولما تكد تتناسق فى جميع الحركات .

يقول الدكتور فيلوكفسكى إن البابليين الأقدمين لم يحسبوا الزهرة بين السيارات فى تاريخ سابق لذلك التاريخ . وإنهم حين رصدوها سجلوا فى ألواحهم الفلكية اختلافًا بين مواعيد طلوعها يمتد إلى الشهور ومهما يكن من خطأ الحساب فهو لا يمتد إلى الشهور عند قوم اشتهروا برصد الكواكب والنجوم منذ أقدم العصور .

ويقول إن بديهة الشعوب هى التى أوحت إليها بالخوف من المذنبات وبالخوف من فلك الزهرة على الخصوص ، أو باعتباره نذيرًا بالكوارث والخوارق الجسام فى جميع الأساطير المروية عن الأقدمين وربما كان من الأدلة على حداثة هذا السيار فى المجموعة الشمسية أن أساطير الإغريق تتحدث عن مولد الزهرة ولا تتحدث عن مولد الأرباب الفلكية الأخرى بمثل هذا التفصيل .

وأيًّا كان فصل القول فى آراء هذا الطبيب الفلكى العجيب فالثابت من كتابه أمران : أحدهما أنه جمع لكتابه من الأسانيدما يكفى لمكتبة كاملة . وجشم نفسه

من الجهد المضنى فى مراجعة التواريخ الشرقية والغربية ما ليس يتجشمه الأكثرون من أصحاب الآراء الذين يسمحون لأنفسهم باقتحام العرف والتقاليد .

والأمر الثانى أن العلم واسع لا حدود لاتساعه اليوم ولا لما ينتظر له من الاتساع فى كل باب من أبواب المعرفة بأسرار الأرض والسماء . فليس من العلم أن يثب المتعجلون إلى الإنكار القاطع والجزم باستحالة عارض من العوارض التى تخالف المألوف . وحسب الرجل فضلاً أن يعلّم المتعجلين أن الأناة واجبة فى الحكم على الغرائب وامتحان النقائض والمعجزات . حتى طلوع الشمس من المغرب أو وقوفها على حسب رأى العين فى الفضاء فهى أخبار صالحة للمناقشة صالحة للبحث قبل الجزم فيها برأي يدعمه الدليل .

برنارد شو

عبرة الموت بعد عبرة الحياة

لو جاز أن يوصف الناس كما توصف المنقولات فى طرق « المواصلات » لصح أن يقال عن « برنارد شو » إنه إنسان « قصف » أى قابل للكسر بسهولة ، لأنه عاش مهددًا من جانب عظامه . وعرف الأطباء عنه وهو فى أوج نموه أنه عرضة لتنخر العظام Necrosis وأنه كما قالوا يومئذ « إنسان من زجاج » .

التهبت قدمه من ضغط حذاء ضيق فقرحت وتجمع فيها دمل خطر وجب فتحه لإنقاذه من التسمم ، فكشف علاج الدمل عن تنخر العظام وعاش الرجل بعد ذلك نحو نصف قرن مهددًا من جانب عظامه ثم سقط مرة فرض جسمه وانكسر له رسغ ثم تحامل بتلك العظام عمرًا طويلًا حتى كتب عليه آخر الأمر أن يموت من جراء كسر فى عظام رجله لم يسلم من معقباته . فلم تحمله بعد ذلك قدماه .

قضى الشيخ بعد أن جاوز الرابعة والتسعين ، وهى سن وافية فى حساب أعمار النوابغ على الخصوص ، ولكنها كانت دون ما ينتظر من الحياة . لأنه كان يؤمن بأن العمر الطبيعى للإنسان ينبغى ألا يقل عن ثلاثمائة سنة ، وأن الجنس البشرى قادر بالمحاولة أن يبلغ ذلك المدى من الحياة الجسدية ، وأنه هو يستطيع أن يتخطى المائة ويقترب من المائة والخمسين ، لأنه يبتدئ المحاولة ويعالج التجربة فى أوائلها ويتلوه المحاولون والمجربون أجيالًا متعاقبة حتى يمتد الأجل ببعض الأجيال المقبلة إلى ثلاثة قرون .

قال فى مقدمته للمسرحية التى سماها « العود إلى متوشالح » جد نوح الذى جاء فى العهد القديم أنه عاش تسعمائة وتسعًا وستين سنة : « إن الحياة فى آمادها شديدة التفاوت ، فلا يعلم أحد لماذا تعيش الببغاء عشرة أمثال عمر الكلب ، أو تعيش السلحفاة قرونا فوق عمر الزنبور . ويقع التفاوت بين أعمار الأفراد فى النوع الواحد .. فيعيش لويجى كرنارو ستين سنة أطول من عمر رفائيل وموزار ، ونرى أطولنا عمرًا لا يبلغون من العمر ما يكفى ، فهم بمثابة الأطفال بالنسبة إلى مطالب الحضارة حين يموتون .. وإنه لفى حدود المعقول أن القوة التى وصلت بنا إلى حيث بلغنا قد تصل بنا إلى ما بعدها من الغايات . فإذا كان الإنسان يقدر عمره اليوم بنحو سبعين سنة ففى وسعه أن يقدره بثلاثمائة سنة أو ثلاثة آلاف أو بالأجل الذى تختمه حادثة من الحوادث لا محيص عنها » .

ومن مفارقات شو – أو من موافقاته – أنه لم يؤمن هذا الإيمان بإرادة الحياة إلا بعد الستين . أما قبل ذلك فقد كان تفكيره فى الموت أقوى من تفكيره فى الحياة . وكان مشغولاً بوصيته يكتبها ويعيد كتابتها مرات فى السنة الواحدة . حتى إذا جاوز الستين طوى الوصية وتعمد أن يهملها ويتناساها عدة سنين .

وقبل السؤال عن رأى شو فى إرادة الحياة هل هو ممكن أو غير ممكن ، نسأل : هل طول الحياة الإنسانية إلى ذلك الأمد لازم أو غير لازم ؟ ونستمد الجواب من حياة شو نفسه فى أعوامه الأخيرة وهى مثال صادق فى هذا الصدد لحياة النوابغ المعمرين .

فالواضح من أعمال شو أنه ختم رسالته الأدبية منذ عشرين سنة ، فلم يأت بعد السبعين بجديد يضاف إلى جوهر تلك الرسالة ، ولم يكن عنده على ما يظهر جديد يحتاج إلى السنين الطويلة للتبشير به وجلاء غوامضه وأسراره . فكيف لو طال العمر إلى مئات السنين ؟

ومن هنا يظهر أن العمر الإنسانى مقدر على حساب الطاقة الإنسانية فلا متسع فيه لشوط أطول من هذه الأشواط التى عهدناها فى أعمار النوابغ ومنهم من لا يتم الخمسين أو الأربعين .

ويحضرنى هنا ما قيل عن الشاعر الإنجليزى شاترتون الذى بخع نفسه قبل العشرين وتساءل بعض النقاد قائلين : ماذا كان خليقا أن يخرج من هذه العبقرية لو عاش صاحبها عشرين سنة أخرى ؟ فكان جواب الناقد الملهم وليام هازلت : إنها لم تكن خليقة أن تأتى بشىء خير مما جاءت به قبل تمام أجلها . فإن العبقرية التى تحس لها رسالة باقية لا تقدم على الانتحار .

ويبدو لنا أن الحياة على هذا المذهب فى تقدير الأعمار والرسالات فهى تعطى الإنسان من العمر بمقدار ما يستوفيه من طاقته الذهنية والنفسية . ثم يستوى الطول والقصر بعد ذلك فى أعمار أبناء آدم وحواء .

فلا « لزوم » لثلاثمائة سنة فى حياة الإنسان إلا إذا كان يحيا لنفسه . أما إذا كان يأخذ من الحياة بمقدار ما يعطيها فمائة سنة نصيب كاف بل أكثر من الكفاية كما تبين من سوابق النوابغ وأصحاب المهام والرسالات .

إن الطبيعيين الأقدمين قد وضعوا لأعمار الأحياء قاعدة بنوها على التجربة والملاحظة فى عالم الحيوان من أعلاه إلى أدناه ، وخلاصة هذه القاعدة أن عمر الحى ستة أمثال الفترة التى يتم فيها نضجه واستواء خلقه . فإذا كان نضج الإنسان يتم فى نحو عشرين سنة فغاية مداه من العمر مائة وعشرون سنة ، ولكنه لا يبلغها لانحرافه عن سنن الطبيعة فى الغذاء والسكن ، واستخدام قواه الجسدية ، والعقلية ، ولا يجاوزها كثيرًا إذا استقامت حياته على النهج القويم .

وهذا التقدير معقول ، أو هو على الأقل مطابق للمشاهد من آجال الحيوانات وأدوار نضجها واستواء خلقها ، فإذا تفلسف القائلون بإرادة الحياة على هذا الأساس فإنهم لا يبعدون المرمى ولا يتحدثون عن المستحيل أوغير المعهود .

* * *

لقد كان برناردشو من المؤمنين ولم يكن من الملحدين .

هكذا قال القس دافيز الذى صلى على جثمانه بعد وفاته ، وهكذا نقول نحن معتمدين على المأثور من فلسفته ، ومختلف أقواله فى رواياته وأحاديثه ومقالاته .

وليس كلامه عن العمر وإرادة الحياة مما ينفى إيمانه أو يثبت إلحاده كما قد يخطر لمن يسمعون بهذا الرأى ولا يتتبعونه إلى أسبابه ومقدماته ، بل هو آية الإيمان فى فلسفة هذا المفكر الجرىء عند النظر إلى تلك الأسباب والمقدمات .

فقد كان الخلاف فى عصر شو على سنن الحياة خلافًا بين القائلين بالتطور بفعل الظروف العمياء والقائلين بأن التطور فعل إرادة خالقة تريد وتحقق ما تريد بما تودعه فى طبائع الأحياء .

والزرافة هى مثلهم المشهور فى توضيح هذين المذهبين المتقابلين ، فالذين يقولون بفعل الظروف العمياء يزعمون أن الزرافة طال عنقها ، لأن الزرافات القصار الأعناق لم تصل إلى أعالى الشجر لتأكل من ورقه فماتت وانقرضت ولم تبق إلا السلالة التى استطاعت أن تأكل من أعالى الأشجار .

والذين يقولون بالإرادة الخالقة يفسرون مذهبهم بأن الحياة هى التى أطالت أعناقها ، وأن قدرة الحياة تخلق العضو متى احتاجت إليه الوظيفة ، فليست وظائف الخلق رمية بغير رام ، بل هى مشيئة وقدرة وتقدير .

هذه القدرة هى التى يسميها برنارد شو بالقوة الحية أو قوة الحياة Life Force ويرى أن الإيمان بوجودها مسألة حياة أو موت للخلائق البشرية فلا قوام للجنس البشرى بغير عقيدة ودين .

وقد اشتهر الرجل بدعوته إلى صيانة الحياة فى كل صورة من صورها البريئة ، فحرم على نفسه أكل اللحوم ، وقصر طعامه على الفاكهة ، والثمرات النباتية . ولم ينس الحيوان وهو يفكر فى يوم وفاته ، ويوم تشييعه فأوصى بين الجد والفكاهة : « ألّا يتبعوا نعشه بالسيارات تجللها شارات الحزن والحداد ، بل بقطعان البقر والضأن والخنازير وأسراب الحمام والأوز والدجاج ، وأحواض يعوم فيها السمك الحى موشحات كلها بالبياض ، مشتركات كلها فى كرامة الرجل الذى كان يؤثر أن يهلك جوعًا على أن يشبع بلحوم زملائه من المخلوقات الحية » .

لكن المخلوقات الحية لم تسمع بهذه الوصية ولم تعمل بها . ولم تقم بتشييعه

تلك المخلوقات التى أعفاها من سكينه وناره ، بل قامت به هذه المخلوقات الآدمية التى لم يعفها من قلم أمضى من السكين ومن لواذع نقدٍ أكوى وأقوى من النار ، وهى على هذا شاكرة ذاكرة تود لو صدقت الأحلام فعاش الرجل كما اشتهى أن يعيش ثلاثمائة عام .

obeikandl.com

العدد ١٣

تعودت أن أتحدى خرافات التشاؤم على اختلافها ولا سيما خرافة التشاؤم بالعدد (١٣) لأن التشاؤم به يتكرر فى مناسبات كثيرة ويتفق عليه الغربيون وطائفة كبيرة من الشرقيين .

فسكنت فى منزل رقم ١٣ واخترت نمرة التليفون مبدوءة برقم ١٣ وتعمدت غير مرة أن أسافر فى اليوم الثالث عشر من الشهر كلما كان أمر السفر موكولا إلى اختيارى .

وجرى الحديث عن هذه الخرافة بين بعض الأدباء ، فقلت إن مصر قد أعلنت حرب الفكر على الخرافة فى يوم ذكرى الجهاد . فاتخذت من الرقم الذى يخافه المصدقون للخرافات عيدًا تحتفل به كل عام .

قال أحدهم : وهل نسيت جرائر هذا الرقم فى ذلك اليوم ؟ قلت : وما هى ؟

قال : أولها اعتقال سعد زغلول .

قلت : إذا صح أن سعدًا أصابه شؤم العدد ١٣ فقد يصح أيضا أن صاحبيه قد أدركتهما بركته فنجوا من الاعتقال .

قال : ولكنها جرائر كثيرة وليست جريرة واحدة . ومنها هذه الأزمات والمنازعات التى لم تفرغ منها البلاد منذ ذلك اليوم !.

فعجبت لتعليق الأزمات والمنازعات برقم اليوم الذى طالبنا فيه بحقوقنا ، لأن الأمم المتحدة قد تنازعت كما تنازعنا ولم يكن لنزاعهم سر كهذا السر المضحك ، وقد تنازع أتباع الأديان جميعًا وليس منهم أحد ينظر إلى أيام مولد

الأنبياء كأنها شؤم يتعوذ منه ويتقيه ، بل هى عند جميع المؤمنين أيام ذكرى يتبركون بها ويحتفلون بها ولا يحبون أن ينسوها .

على أنه من حسن الحظ أن تشيع هذه الخرافة بين الأوربيين الذين يفخرون بالعلم ويتهمون الشرقيين بتصديق الخرافات والأوهام ، فلا نظن أننا كنّا نحترم هذه الخرافة كما يحترمها الغربيون لو أنها شاعت عندنا كما شاعت عندهم من قبل وتشيع عندهم إلى أيامنا الحاضرة ، فقد جاء فى « موسوعة الخرافة » التى ألفها الأستاذ ادوين رادفورد وقرينته أن المحكمة العليا فى إنجلترا قضت بإلغاء ترقيم منزل فى الريف لأن رقم (١٣) الذى كتب على بابه قد صد عنه المستأجرين ، وأن وكلاء مكتب التأجير شهدوا بما أصاب مالكة المنزل من الخسارة من جراء ذلك الرقم الكريه . وظل المنزل خلوًا لا يطمئن أحد إلى سكنه عدة شهور ، بعد ترقيمه برقم (١٢ حرف ألف) .. لأن مالكته ماتت على الرغم من هذا التغيير !.

ولكل خرافة أصل أو تفسير . فما هو أصل هذه الخرافة أو تفسيرها ؟ إن مجلة أمريكية قديمة كانت تصدر قبل أكثر من مائة وخمسين سنة ذكرت فى سنة ١٧٩٨ أن التشاؤم بالعدد ١٣ ربما سرى إلى جمهرة الناس من شركات التأمين فى ذلك الزمن ، لأنها كانت تجرى على قاعدة اتخذتها من الإحصاءات المتكررة تدل على أنها إذا اختارت ثلاثة عشر اسما جزافًا بغير بحث عن أصحابها فإن واحدًا منهم يموت فى خلال عام من ذلك التاريخ .

ولكن الخرافة قد عرفت قبل القرن الثامن عشر فى البلاد الأوربية وبعضهم يرجح أنها ترجع إلى عهد السيد المسيح عليه السلام ، وأن سببها الأول هو جلوس السيد المسيح وتلاميذه على مائدة العشاء الأخير وعدتهم جميعًا ثلاثة عشر ، فانتهى العشاء بخيانة يهوذا للسيد المسيح وتسليمه إلى جنود الدولة والهيكل كما هو معلوم .

ويشك الكثيرون فى هذا التفسير لأن كارثة الثلاثة عشر على المائدة مذكورة فى الأساطير السكندنافية التى توارثتها أمم الشمال من زمن قديم ، ففى هذه الأساطير أن الإله بولدر كان يتلقى فى الحلم نذيرًا باقتراب أجله ، وكانوا

يلقبونه « محبوب الأرباب والناس » لوضاءة جبينه وسلامة طويته وبقائه على عهده لعباده وعارفيه ، وكانت أمه تشفق عليه من تلك الأحلام والنذر فجمعت الخلائق وأخذت عليها العهد ألا تصيب ابنها المحبوب بمكروه ، واحتفرت من بين تلك الخلائق شجيرة صغيرة لم تدعها إلى القسم ولم تحسب أنها تصيب إلهًا عظيمًا بما يرديه . فتربص « لوكى » إله الشر بالأرباب حتى اجتمعوا على مائدتهم وعدتهم اثنا عشر ، فتطفل على المائدة وانتظر حتى أقبل الأرباب يتلاعبون ويقذفون بولدر بما تصل إليه أيديهم لعلمهم أنه لن يصاب من شيء ، فأوعز إلى أحدهم أن يقذفه بتلك الشجيرة المنسية فكان فيها القضاء عليه ! ولولا أنهم سمحوا للضيف الثالث عشر أن يبقى على المائدة لما مات الإله محبوب الإلهة والناس !

هذا التفسير أيضًا لا يرضى جميع الباحثين فى الأساطير والخرافات ، لأن التشاؤم بالرقم ١٣ قد عرف قبل شيوع الأساطير السكندنافية وقبل سماع أمم الجنوب بأخبار أمم الشمال ، ويعتقد أناس من « الميثولوجيين » - أى الباحثين فى خرافات الأمم - أن التشاؤم بالعدد ١٣ كالتشاؤم بالعددين ١١ و ٧ يرجع إلى إيمان الفلكيين الأقدمين بما كانوا يسمونه « السنة الأفلاطونية » .. وهى سنة كونية طولها اثنا عشر مليونًا وتسعمائة وستون ألف سنة بحساب السنين الشمسية ، وهو عدد لا يقبل القسمة على ثلاثة عشر ولا على العددين الآخرين ولهذا كانت هذه الأعداد فى رأيهم مقارنة للخلل والشذوذ .

أما علة اقترانها بالخلل والشذوذ لأن رقم السنة الكونية لا يقبل القسمة عليها فهى معقولة جدًا على شريطة واحدة ، وهى تصديق الفلكيين الأقدمين فى كلامهم عن تلك السنة الكونية .

فهؤلاء الفلكيون الأقدمون من أهل بابل على الخصوص كانوا يزعمون أن الأفلاك جميعًا تستوفى دوراتها كلما مضى عليها حاصل ضرب الدورات الفلكية جميعًا بعضها فى بعض ، وحاصل ضرب الدورات فى حسابهم يساوى (١٢,٩٦٠,٠٠٠) هى عمر الكون بحساب السنين الشمسية ، ثم يبطل عمل

الكون ولا تبقى له « وظيفة » يؤديها بعد انتهاء جميع دوراته ، فينقضى الفلك وتتهاوى النجوم وتعود الدورة الفلكية من جديد حتى تستوفى تلك الملايين من السنين مرة أخرى ، وقد استوفتها قبل هذه المرة ملايين المرات .

لكننا لا نستطيع بالبداهة والحساب أن نصدق الفلكيين الأقدمين فيما زعموه وما قدروه ، لأنهم وصلوا إلى عدد (١٢,٩٦٠,٠٠٠) من طريق الخطأ الظاهر ، وهو ضرب (٣٦٠) عدد أيام السنة فى (٣٦٠٠٠) مجموعة بعض السنين الكبيرة ، وكلاهما خطأ فى الحساب حتى على تقدير أن السنة الشمسية كانت ثلاثمائة وستين يوما فى بعض الأزمان الغابرة ، كما يظن الطبيب الفلكى « فيلوكفسكى » الذى لخصنا كلامه فى إحدى هذه المقالات قبل أسبوعين .

على أن الناس يختلفون فى التشاؤم كما يختلفون فى كل شىء ، ومنهم من يتفاءل بالأعداد الفردية كلها ولا يستثنى منها ثلاثة عشر ، ومنهم من يتشاءم بها كلها ولا يخص منها ثلاثة عشر وقد اصطلح هؤلاء على تسمية الأعداد الفردية بأعداد الضرائر وتسمية الأعداد الزوجية بأعداد الأمهات ، تفرقة بينها فيما تحمله للناس من نية الخير ونية الشر كما تفترق الأم والضرة .

وفى بلادنا نحن المصريين أناس يتشاءمون بالعدد « خمسة » ولا يذكرونه بألسنتهم بل يعبرون عنه بأربعة وواحد أو بستة إلا واحدًا ويحوقلون فزعًا إذا سبقتهم ألسنتهم إلى ذكره فى عرض الكلام ولو كان للخرافة عقل لما تشاءموا بعدد يحملونه فى أيديهم وفى أرجلهم ، ولعل الأصل فى التشاؤم بعدد الأصابع أن الناس تعودوا أن يصدوا ما يكرهون بحركة الكف مفتوحة الأصابع الخمسة وقد تكون بين الكف بمعنى اليد والكف بمعنى الصد علاقة ملحوظة فى أصل التسمية العربية فيسرى التشاؤم بالخمس من معنى دفع المكروه كلما انفرجت أصابع الكف فى مقام الاتقاء والاستعاذة .

ونعود فنقول إننا لم نحترم خرافة التشاؤم بالعدد كما احترمها جماعة من الغربيين ، فليس عندنا مجلس بلدى يتخطى العدد « ٥ » فى ترقيم البيوت ، ولا مستأجرون يتهيبون السكن فى البيوت التى تحمل هذا الرقم ، ولا محكمة

تضطرها العادة إلى الحكم على المجالس البلدية بتعويض الخسائر التى تصيب الناس من تقديس هذه الخرافات .

وأيًّا كان سبب التشاؤم بالعدد (١٣) فنحن نجهله ونعلم سبب الاحتفال باليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر ، ولن نترك معلومًا لمجهول .

obeikandl.com

السّنة الكونيَّة

استغرب بعض القرّاء أن يلجأ فريق من العلماء « الميثولوجيين » إلى عقيدة السنة الكونية ، أو الدورة الكونية ، لتعليل التشاؤم بالعدد (١٣) وظن هؤلاء القراء أن الدورة الكونية عقيدة خفية مجهولة لا تصلح لتعليل خرافة عالمية شاعت بين الناس كل ذلك الشيوع .

لكن الواقع أن الدورة الكونية ليست من الخفاء بحيث يظنون ، لأنها من العقائد التى طبقت آفاق العالم المتحضر قبل عصر الميلاد بعشرات القرون ، وانتشر القول بها من الصين والهند إلى فارس وبابل إلى مصر واليونان ، ثم انتقلت فكرتها إلى الرومان والأمم الداخلة فى حوزتهم ، ثم تخلفت عنهم وعن اليونان فى الأدب الأوربى الحديث .

وكانوا يسمونها بالسنة الأفلاطونية الكبيرة ، نسبة إلى الفيلسوف المشهور أفلاطون ، ولم ينسبوها إليه لأنه كان أول القائلين بها فى الزمن القديم ، ولكنهم اطلعوا على فكرتها فى كتابه المسمى بتيماوس فنسبوها إليه ، وجاء تلميذه أرسطو فتشكك فى معنى الزمان السابق والزمان اللاحق ما دام الدهر حلقة دائرة يتوالى فيها ما قبلنا وما بعدنا بلا انقطاع .

وبقى كهان الهند إلى ما بعد الإسلام يقولون بهذه السنة الكونية أو الدورة الكونية ، فعندهم أن الكون يتجدد فى كل دورة ويعود كما بدأ بجميع موجوداته وتفصيلاته ، وأنه يستوفى دوراته فى دهر طويل يقدرونه بملايين السنين أو على قولهم « باثنى عشر مليونًا وتسعمائة وستين ألفًا بحساب السنين الشمسية » ثم يتداعى ويتقوض ويأخذ كرة أخرى فى تركيب جديد .

ولما ذهب مؤرخنا المسعودى إلى الهند لقى هناك من يقولون بهذه العقيدة واطلع على كتبهم فوجد أنهم ينسبون إلى حكيمهم الأول أنه « كان أول من تكلم فى أوج الشمس وذكر أنه يقيم فى كل برج ثلاثة آلاف سنة ويقطع الفلك فى ستة وثلاثين ألف سنة والأوج على رأى البرهمن فى وقتنا هذا وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة فى برج الثور وأنه إذا انتقل إلى البروج الجنوبية انتقلت العمارة فصار العامر خرابًا والخارب عامرًا والشمال جنوبًا والجنوب شمالاً » .

قال المسعودى فى مروج الذهب « وحدوا لذلك أجلاً ضربوه .. ووسموا ذلك بعمر العالم وجعلوا المسافة بين البدء والانتهاء مدة ستة وثلاثين ألف سنة مكررة فى اثنى عشر ألف عام وهذا عندهم الهازروان الضابط لقوى هذه الأشياء » .

ولم ينته الكلام فى الدورة الكونية بانتهاء الحضارات القديمة بل تجدد النظر فيه وقال بهذه الدورة أناس من المؤمنين بالعلم الحديث كفردريك إنجلز شريك كارل ماركس فى الدعوة الشيوعية ، إذ يقول : « إن المادة تتحرك فى دورات أبدية تستتم كل دورة منها مداها فى دهر من الزمان تلوح السنة الأرضية إلى جانبه كأنها عدم ... وأن تلك الضرورة الحديدية التى تقضى بزوال أرفع زهرات المادة – وهى القوة الحية – هى بعينها تقضى بميلادها كرة أخرى فى زمان آخر » .

ويظهر أن هذه الفكرة صادفت رواجها الأكبر بين الألمان حنينًا منهم إلى القرابة « الهند جرمانية » أو القرابة الآرية العتيقة ، فقال بها شاعرهم جيتى وفيلسوفهم نيتشه كما قال بها إنجلز ، وخيل إلى نيتشه أنه رسولها المبشر بها فى العصر الحديث فجعل « الرجعة الأبدية » ركنًا من أركان فلسفته التى تقول للحياة « نعم » ولا تقول لها « لا » أبدًا وإن شقيت بها كما شقى غاية الشقاء .. وآية ذلك أنه يجب أن يعود ويعود كما كان ليستعيد تلك الحياة بغير تبديل .

وكأنما أرادت هذه الفكرة العجيبة أن تدور دورتها من أوربة إلى الهند على طريق العراق وريثة بابل القديمة ، فظهرت فى كتابات الشاعر العراقى الحديث جميل صدقى الزهاوى رحمه الله ، وقال فى كتابه المجمل « إن مظاهر الحياة من

مظاهر المادة التى ليست فى أصلها إلا قوة ، وإن هذا الفضاء الذى صرحت بأنه لا يتناهى يحتوى على عدد غير متناه من العوالم النجمية ، وإن فى كثير من هذه العوالم نظامًا مثل نظامنا الشمسى ، وإن فى ذلك النظام أرضًا مثل أرضنا ، وفى بعضها أرض تشبه أرضنا إلى زمن محدود ثم تختلف عنها ، وإن فى كل أرض مشابهة لأرضنا إنسانًا مثلى وآخر مثلك وآخرين مثل غيرنا من الناس ، قد ولدوا من آبائهم كما فى أرضنا ، وقد جرى لآبائهم فيها ما جرى لهم فى هذه تمامًا » .

ثم قال : « وأرضنا هذه بعد أن تصير إلى الأثير تتولد ثانية بعد ربوات الملايين من السنين فيجرى عليها تطوراتها طبق ما جرت فى دورها هذا ويتولد آباؤنا كما تولدوا ونتولد منهم كما تولدنا ونموت كما فى هذه المرة وقد تكررنا من الأزل وسوف نتكرر إلى الأبد » .

وقد كانت هذه الفكرة العجيبة موضوع مناقشة بينه وبين كاتب هذه السطور فقلت له : « إنه يستلزم الدور ولا شىء يدعو إلى استلزامه ، فما دامت الجواهر على قوله لا تتناهى والحركات لا تتناهى والقضاء لا يتناهى فالنتيجة أن تكوين الأجرام بأشكالها لا يتناهى ولا حاجة إلى تكرارها وعودتها هى بعينها مرة بعد مرة إلى غير نهاية ، ويجب الآن أن نضرب صفحًا عن لا نهاية الزمان التى تخدعنا باحتمال هذا التكرار فيما يلى أو فيما سبق قبل الآن . يجب أن نضرب صفحًا عن لا نهاية الزمان ، لأن لا نهاية الفضاء موجودة فى هذه اللحظة . فأى شىء فيها يستلزم أن الأرض مكررة فى مكان غير مكانها الذى هى فيه ؟ .. لا شىء . وإذا لم يكن إنسان مكررًا على هذه الأرض بعينها فلماذا نفرض أن كل إنسان مكرر فى أرض تشبهها تمام الشبه فى هذا الفضاء السحيق .. » .

والذى نريد أن نستخلصه من هذه الآراء المتباعدة فى أزمانها وأماكنها أن فكرة الدورة الكونية ليست من الخفاء والانعزال بحيث يظنها بعض القراء الذين استغربوا أن يرجع إليها الميثولوجيون فى تعليل التشاؤم بالعدد (١٣) ولا يرجعوا به إلى أقوال الناس عن العشاء الأخير أو أقوالهم عن أساطير أمم الشمال .

ونحن لا نستبعد أن تكون أمم الشمال قد أخذت التشاؤم بالعدد (١٣) من بابل القديمة كما أخذت عنها كثيرًا من العقائد الفلكية والأساطير المتعلقة بالكواكب ودورات البروج ومنها عقائدها فى أرباب الأيام ، وقد أشرنا إلى هذا فى كتابنا عن أثر العرب فى الحضارة الأوربية وأجملنا الكلام عن معانى أسماء الأيام فى اللغات الأوربية فإذا هى مطابقة لما اعتقده البابليون الأقدمون ورواه عنهم المؤرخون المسلمون ، فيوم الأحد يعرف فى الإنجليزية باسم « سندای » Sunday أو يوم الشمس ، ويوم الاثنين يعرف فيها باسم « منداى » Monday أو يوم القمر ، ويوم الثلاثاء يعرف فيها باسم « تيوزداى » Tuesday أو يوم ثيوز إله الحرب عند أمم الشمال ، وتوضحه التسمية الفرنسية لهذا اليوم لأن يوم الثلاثاء يعرف باسم « ماردى » Mardi أو يوم مارس وهو المريخ ، ويوم الأربعاء يعرف فى الإنجليزية باسم « ودنزداى » Wednesday أى يوم ودين Gdin إله المعارف والفنون عند قدماء التيوتون ، وتوضحه التسمية الفرنسية أيضا لأن يوم الأربعاء يعرف فيها باسم Mercredi أو يوم عطارد وهو بالفرنسية Mercure وبالإنجليزية Mercury .

ويوم الخميس يعرف فى الإنجليزية باسم « ثورزداى » Thursday أو يوم ثور إله الرعد عند قدماء التيوتون ، وتوضحه التسمية الفرنسية لأن يوم الخميس فيها يعرف باسم Jeudi أى يوم المشترى أو الإله جوبيتز Joris dies .

ويوم الجمعة يعرف فى الإنجليزية باسم « فرايداى » Friday أو يوم الربة فريج Frig زوجة عطارد ومقابلة الزهرة فى صفاتها ، وتوضحه التسمية الفرنسية لأن الزهرة Vendredi أو يوم الجمعة فيها يعرف باسم يوم فينوس .

ويوم السبت يعرف فى الإنجليزية باسم « ساترداى » Saturday أو يوم زحل Saturn فى تلك اللغة إلى اليوم .

وعلى هذا ليس بالمستغرب أن يكون تشاؤم السكندنافيين الأقدمين من اجتماع ثلاثة عشر إلها على مائدة واحدة منقولاً إليهم من أساطير الشرق القديم ، وتعليله كما سبق فى مقال الأسبوع الماضى أن العدد (١٣) ليس من

عوامل السنة الكونية وهى تساوى (١٢,٩٦٠,٠٠٠) سنة شمسية فهو من ثم شذوذ عن نظام الدورات فى الأفلاك العلوية ، يدل على الخلل والانتقاض .

إنهم من الشرق يستقبلون الشمس والقمر والكواكب والبروج ، فلا جرم يتلقون معها من الشرق ما يتصل بها من نحوس وسعود ..!

obeikandl.com

بين نسختين .. !

موضوع هذا المقال هو الفرق بين نسختين من كتاب صديقنا الأديب الفنان الأستاذ « توفيق الحكيم » .

واسم الكتاب « مسرح المجتمع » يضم بين دفتيه إحدى وعشرين مسرحية من ذات الفصل الواحد أو ذات الفصلين أو ذات الفصول ، جمعها الأستاذ فى نحو ثمانمائة صفحة من القطع الكبير ، وعنى بورقها وطبعها على عادته فى نشر كتبه الفنية .

وجاءتنى من الكتاب نسخة هدية : نسخة مغلفة بالورق كنت أحسب أنها هى الطبعة الوحيدة للكتاب ، ولكنى رأيت الكتاب بعينه بعد يوم واحد فى جلد أنيق فلم أدر ما هو وجه التفرقة بين النسختين ، سواء أكانت النسخ معدة للبيع أم كانت معدة للإهداء .

أردت أن أحسن الظن فقلت إن الأخ الأديب قد أحب أن يجعلنى ممن آثرهم بالسبق إلى اقتناء الكتاب ، فلم ينتظر إلى تمام التجليد .

وأردت أن أسىء الظن فقلت إنه يوم فرد ، يوم بين الوقت الذى تسلمت فيه النسخة المغلفة والوقت الذى رأيت فيه النسخة ذات الجلد الأنيق ، فهل جاءت التفرقة من قبيل « الاقتصاد » أو جاءت من قبيل التمييز والتفضيل ؟ .

إننى سأكتب عن هذه الهدية النفيسة فى نسختيها ، وأمنح صديقنا فرصة للحيرة فى مقصدى مما كتبت ، فمن حق الحيرة أن تقابل بحيرة مثلها ، أو بأحسن منها ، وعلى الله التوفيق .

الأستاذ توفيق الحكيم نابغة من نوابغ الرواية المسرحية على أسلوبه الذى

يرتفع عن الابتذال ولا ينقطع عن المجتمع ولا عن النظارة أو القراء .

فهل فى وسعه أن يغض الطرف عن المجتمع وما احتواه من الطبقات والتقاليد والفروق ؟

كلا ، فالمجتمع وصورته لا يفترقان ، وليس من التجوز البعيد أن نقول عن المسرح إنه صورة المجتمع ، وإن اختلفت أساليب التصوير .

والأستاذ توفيق دائب النظر إلى المجتمع ووثنه المعبود ، وهل للمجتمع وثن أكرم وأحقر من المال ؟

الأستاذ توفيق ينظر إلى المجتمع ووثنه ، وهو لا يعبد الوثن مع العابدين ، ولكنه لا يستطيع أن يرفع عنه نظره ، ولا يستطيع أن يحتقر النعم التى يغدقها على عباده ، وإن استطاع أن يعلم أنهم حقراء .

وتسأله : لماذا لا تهجر هذا المعبد الذى لا ترضى عن عباده ؟ فيقول لك إنه هو المسرح الذى لا حيلة لى فى هجره ، فإنه هو الدنيا التى رصدتنى لها ربات الفنون ، ولكن رب دنيا يرصد لها من يختارهم من المرسلين .

قيل إن الاحتقار لا يمنع الحب ، وحقيقة الأمر أن أخانا يحتقر ذلك الوثن ولكنه لا يبغضه ولا ينفر منه ، ولو أنه أعطى خياره لطرد عباده من محرابه ، ليستأثر به بعدهم على شعائر جديدة وإيمان جديد .

سمعته مرة ينعى حظ الأديب لأنه يظل أديبًا وزملاؤه يرتقون دونه فى المناصب والدرجات .

ولو أنه اكتفى بأن ينعى حظ الأديب لما عجبت ، فإن حظ الأديب فى الشرق مبخوس فى نجاحه ومبخوس فى إخفاقه ، ولكنه لم يكتف بهذا بل ظن أن فلانًا وفلانًا من الذين تسنموا المناصب والدرجات أعظم شأنًا منه وهو فى طليعة الأدباء النابهين ! وهذا هو موضع العجب ، لأن مجتمعات الأرض كلها لا تستطيع أن ترفع مخلوقًا من مخاليق الوظائف التى تصنعها «فبريقة» الدواوين إلى مقام فوق مقام الفن والأدب .

فهل يقبل الأستاذ البدل ؟ وهل يتمناه ؟ وهل يظن أن اعتزاز المخلوق الديوانى مشروع معقول وأن اعتزازه هو بأدبه وفنه مفتعل مردود ؟

كلا . ياأخانا .. إن الآفة كلها أنك مغيظ من ذلك الوثن لأنك لا تبغضه ولا تعافه ، ولكنك تريده على شرطك أنت ولا تريده على شرطه هو ، وذلك هو موضع الخلاف !

وفى هذه المجموعة مسرحية بارعة بعنوان الرجل الذى صمد ، أو بعنوان « تيار المجتمع » ، يجرى فيها الحوار بين زميلين قديمين أحدهما يخسر المال فى سبيل المبدأ والثانى يخسر المبدأ فى سبيل المال ، والزميل الحريص على مبدئه فى حاجة إلى بضع مئات من الجنيهات ينفقها فى زفاف بنته ، وبين يديه عشرات الألوف معروضة عليه ، لأنه مطلوب للعمل فى إدارة شركة تمنحه ثمانية آلاف جنيه مكافأة له كل سنة ، وزميله يعرض عليه عشرة آلاف جنيه ليتوسط عند صديقه وزير المالية فى صفقة كبيرة ، وليس من المنظور أن يرد الوزير رجاءه لأنه رئيس اللجنة المالية بمجلس الشيوخ ، ومعروف بتشدده فى مراجعة القوانين والحسابات ، ولعلهم يعرضون عليه إدارة الشركة ليستريحوا من دقته فى الحساب .

وهذا نموذج من الحوار بين الزميلين :

عبد البر باشا : لا تبالغ ياصالح بك . لا تبالغ .. ليست هناك خيانة لفكرة أو تنكر لمبدأ . ولكنه فهم لمطالب العيش فى المجتمع الحديث .

صالح بك : مطالب العيش تقتضيك أن تحصر كل فكرك ونشاطك وإيمانك واهتمامك فى تكديس مئات الألوف فوق مئات الألوف ؟ .. لا تؤاخذنى إذا أشرت إلى شئونك الخاصة .. كم يقدرون ثروتك الآن ؟ .. قرأت مرة أنها لا تقل عن ستمائة ألف جنيه .

عبد البر باشا : وما ستمائة ألف جنيه ؟ هل تعد هذا المبلغ فى وقتنا الحاضر ثروة كبيرة !؟

صالح بك : أرأيت ؟ لقد ولجت الباب الذى لا تدخله القناعة .

عبد البر باشا : إذا عرفت دنيا المال والأعمال ، فإنك ستحكم من الفور أننى رجل فقير .

صالح بك : فقير بالنسبة إلى من جمع المليون ، فإذا صرت إلى المليون فأنت

فقير بالنسبة إلى صاحب المليونين ، فإذا نلت فى يدك المليونين فأنت فقير بالنسبة إلى من فى يده ثلاثة ملايين . وهلم جرًّا صعدًا فى الدرج .. بل خفضًا فى السلم المؤدى إلى جحيم الجشع .

عبد البر باشا : الجشع .. اسمح لى ياصالح بك أن أقول لك إنك تتكلم كلامًا ساذجًا فى موضوع لا تدرى عنه شيئا .

صالح بك : لست فى حاجة إلى علم كثير لأرى الآن هدفك فى الحياة .. قرأت فى الصحف أخيرًا أنك احتفلت بزواج ابنك من كريمة أحد كبار المقاولين وأصحاب المال والأعمال الذين يملكون نحو مليونين من الجنيهات .. تريد أن تدعم ثراء بثراء . أهذا كله من مقتضيات مطالب العيش ؟ لو كان رغيف خبزك اليومى من الذهب الإبريز لما لزمك كل هذا المال .. لا .. ليست مطالب العيش ، ولكنه إيمان جديد . إيمان جنونى بقوة هى عندك اليوم وعند أمثالك فوق كل القوى .

عبد البر باشا : وهذا هو الواقع . الواقع الذى لا تنكره إلا إذا أردت المكابرة . أهناك قوة فى مجتمعنا اليوم غير قوة المال تستطيع أن تسمع صوتك وترفع قدرك وتبقى أثرك .

صالح بك : رحمة الله عليك ياراغب حمدى ! أين أنت الآن لتسمع هذا الكلام ؟ أين أنت لترى زميلنا القديم قد لجأ هو أيضا آخر الأمر إلى الجماد ليرفع له قدره .

عبد البر باشا : أو لم يرفع لى قدرى بالفعل ؟

صالح بك : مطرقاً – حقا .. مع الأسف الشديد .

عبد البر باشا : هذا هو مجتمعنا الحديث .. ومن سوء التدبير وقلة العقل أن يتجاهل الإنسان الوسط الذى يعيش فيه واللغة التى يفهمها أهله .. إن من يسبح ضد التيار يتعب .

صالح بك : خلا أصحاب العضلات القوية !

والحوار كله على هذا النسق فى جودة التعبير عن وجهتى النظر ولكن كلمة « العضلات القوية » تكشف عن الصراع بين احتقار الوثن والتطلع إلى نعمه

وهباته ، ولولا هذا الصراع لما كان هناك تيار ولا كانت هناك حاجة إلى العضلات القوية ، فإنما يحتاج إلى العضلات القوية من وقع فى التيار وما أبعد المسافة بين المصطرعين والمجروفين فى التيار وبين الناظر إليهم من عل دون أن يخوض فيه أو يعوم ؟!

وصدق الأستاذ توفيق حين وصف عبادة المال بأنها إيمان جديد . فهى فى الواقع شئ لا يقبل التعليل ، وهى من ثم تشبه الإيمان بهذه الصفة لأنها قد حلت محل الإيمان ، فهم يطلبون المال للمال كما يعبد الصوفى الله لله ، وشر الإيمان أن يتعلق الضمير بخرافة يعلم أنها خرافة ولكنه بين يديها عاجز مغلوب .

* * *

الآن يستطيع صديقنا أن يحار فيما أردته بهذا التعقيب الغريب .

هل يحسن الظن فيحسب أنه تقدير للكتاب ؟ أم يسىء الظن فيحسب أنه انتقام للتفرقة والتمييز بين النسختين ؟

كلاهما جائز .

وجائز معهما أن أذكر أننى عضو فى مجلس الشيوخ ، وأن أذكر أديبنا بأن الشيوخ لا يستقيلون من المجلس إذا ندبوا لإدارة الشركات كما تخيل فى كلامه عن صالح بك رئيس اللجنة المالية ، ولوددت الأمر كما تخيل صديقنا الأديب الحكيم ، فهكذا فى الحق ينبغى أن يكون حكم الشريعة على المشترعين .

تسمية الأمم

صدر فى الأيام الأخيرة كتاب باللغة الإنجليزية عن العرب فى التاريخ ألفه الأستاذ برنارد لويس أستاذ تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط بجامعة لندن ، وهو صاحب آثار معروفة فى هذا الموضوع أشهرها « أصول الطائفة الإسماعيلية » و « تركيا الحديثة أو تركيا اليوم » .

والكتاب على إيجازه حسن الإلمام بموضوعه الواسع المتشعب ، وثيق المصادر والمراجع ، قليل التعرض لمظان الشكوك والتخمينات وربما صرفه ذلك عن إيراد بعض المعلومات التى شاعت عن التاريخ العربى القديم ولم تؤخذ بعد مأخذ اليقين .

قال « إن أقدم الأنباء التى انتهت إلينا عن العربية والعرب هى إشارة الأصحاح العاشر من سفر التكوين ، ولكن كلمة العرب لم تذكر فى ذلك النص ، وظهرت للمرة الأولى فى نقش أشورى يرجع إلى سنة ٨٥٣ قبل الميلاد يتكلم فيه شلمنصر الثالث عن هزيمة بعض الأمراء العصاة على أيدى الآشوريين ويدعى أحد أولئك الأمراء جندب العربى وقد اشترك بألف جمل فى المؤامرة » .

قال المؤلف : « ومن ذلك الحين إلى القرن السادس قبل الميلاد تواترت الإشارات فى النقوش الآشورية والبابلية تارة إلى العريبى وتارة إلى العراب أو العربى بضم العين .. إلى أن ظهرت كلمة العرابية حوالى سنة ٥٣٠ قبل الميلاد فى بعض الوثائق الفارسية المسمارية » .

والذى ذكره المؤلف صحيح عن تسمية العرب بهذه الكلمة خاصة ولكنهم ذكروا بأسماء أخرى فى النقوش المصرية قبل الميلاد بخمسة عشر قرنًا وجاء فى

أحد النقوش بمقبرة حر محاب (١٣٥٠ - ١٣١٥ ق م) أن اللاجئين من بدو فلسطين وفدوا على فرعون يلتمسون أن يأويهم فى حماة على سنة أجداده وآباء أجداده من أقدم العصور ، وقد كانوا يعرفون باسم الخبيرى واسم الساسو وهى كلمة يعتقد بعضهم أن لها علاقة بركوب الخيل ، وأحسب أن الأستاذ أحمد كمال بك رحمه الله فسر كلمة الهيقسوس برعاة الخيل من كلمة هيق بمعنى الحصان فى إحدى اللهجات القديمة وكلمة سوس بمعنى السياسة ، ولا تزال كلمة الهيق بالعربية تطلق على الطويل من النعام والإبل وما شابهها من دواب الصحراء .

لكن من أين جاءت كلمة العرب ؟ ومن الذى أطلقها على سكان الجزيرة العربية خاصة ؟

إن المؤلف يشير إلى مجمل الأقوال التى ذهب إليها المؤرخون فى أصل هذه التسمية فيقول : « إن أصل كلمة عرب لا يزال غامضًا بعد التفسيرات المحتملة التى اقترحها كثير من علماء اللغات ، ومنهم من يردها إلى كلمة سامية بمعنى الغرب أطلقها عليهم أول الأمر سكان العراق وأرادوا بها كل من يقيمون إلى الغرب من وادى الفرات . وهذا الاشتقاق موضع شك من الناحية اللغوية ومحل للاعتراض عليه بأن العرب قد أطلقوه على أنفسهم وأنه لا يظن أن أمة من الأمم تسمى نفسها بالموقع الذى تقيم فيه بالنسبة إلى غيرها » .

ثم مضى الأستاذ المؤلف فى سرد التفسيرات الأخرى ومنها ما يفيد معنى البداوة وسكنى الصحراء أو الخراب ، أو يفيد معنى الاختلاط وتعدد الأقوام ، أو يفيد معنى الإفصاح والإبانة وهو مشكوك فيه ، لأن الأمة العربية وجدت وعرفت قبل أن تصف لسانها بكلمة من لغتها تؤدى معنى الفصاحة والبيان .

والرأى الذى نقف عنده لمناقشته هو قول المؤلف « أنه لا يظن أن أمة من الأمم تسمى نفسها بالموقع الذى تقيم فيه بالنسبة إلى غيرها » .

فربما كان أرجح الأقوال فى تسمية الأمم أنها تعرف بالأسماء التى يطلقها عليها الغرباء عنها وأنها لا تحتاج إلى تسمية نفسها لنفسها ، وإنما تأتى الحاجة إلى الاسم عند التحدث عن الأمم الأخرى .

خذ لذلك مثلا اسم « النورديين » أو الشماليين من أمم أوربة ، أو خذ مثلا

اسم المغرب ونسبة المغاربة إليه وهم مقيمون فى بلادهم من مراكش إلى تونس ، أو خذ لذلك مثلا اسم الشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى وقد تعود أناس من أبناء هذه المشارق أن يسموا أنفسهم بمواقعها كما يطلقها عليهم الأوربيون ، بل تعود بعض الأمريكيين أن يتكلم عن السياسة الأمريكية فى الشرق الأقصى مع أن بلاده شرق أقصى من الصين واليابان بالنسبة إلى موقع هذين القطرين .

وإذا رجعنا إلى الأسماء التى اشتهرت بها مصر فاسم « مصر ايم » عبرى بمعنى المصريين ، واسم ايجبت مما أشاعه اليونان وإن كان له أصل مصرى بمعنى الأرض السوداء ، واسم وادى النيل منسوب إلى النهر كما عرفه اليونان .

وقد اشتهر السودان والحبشة وبلاد العجم أو فارس وبلاد البربر بأسمائها هذه ولم يكن أبناؤها هم الذين ذكروها أول الأمر بهذه الأسماء .

فكلمة السودان عربية مأخوذة من لون السواد ، واسم الحبشة معناه الأخلاط ، وينكره أبناء البلاد مؤثرين عليه اسم الأثيوبيين ، واسم العجم بالبداهة لا يروق المسمين به على ألسنة العرب ، ولا يروقهم كذلك اسم فارس المنسوب إلى المجوس الأقدمين ، وإنما يفضلون اليوم أن تذكر بلادهم باسم إيران الذى أسفرت عنه دراسات اللغات وأصول الأجناس ، كما يفضل المغاربة فى إفريقية الشمالية اسم المغرب على اسم البربر القديم .

ويلوح لنا أن نسبة العرب إلى جهة الغرب فرض من أرجح الفروض فى تفسير هذه التسمية ، ويعززه أن اليمن تنسب إلى اليمين وأن الشام تنسب إلى الشأمل أو الشمأل أى جهة اليسار ، ويغلب على الظن أن هذه التسميات جميعا قد تحدرت من أصل سامىٍّ قديم .

يقول الدكتور فانديك فيما نقله عنه تلميذه الكبير جورجى زيدان « بينما كان الساميون ساكنين فى الأراضى السهلة المخصبة حول رأس خليج العجم وفيما سمى بعد حين بالعراق العربى أتاهم قوم كوشيون عن طريق مهرا وحضرموت والحصا فطرد الكوشيون الساميين فنزح بعضهم نحو عيلام ، أى بلاد فارس ، وقوم صعدوا شمالاً على شطوط الفرات وهم التارحيون أسلاف

إبراهيم وقوم ذهبوا غربًا نحو ما سمى بعد حين جزيرة العرب ، وسموا عربًا من عرب بكسر العين والراء ، أى أرض الغروب ، والعبرانيون لا يميزون بالصورة بين العين والغين ، ومن هذه اللفظة أيضًا أوربا أو عروبا ، وانظر مصنفات راولنسن وماكس مولر وقاموس فورست ، ومنهم من قابل التسمية من عرب فى العبرانية أى خلط ومزج لكونهم شعبًا مخلوطًا ممزوجًا من نسل قحطان وإسماعيل ومديان ومواب وعموان وعملاق ، وربما اختلطوا بالكوشيين فى الجنوب » .

وقد اعتمد الدكتور فانديك على أقوال المستشرقين الكبار الذين يوحدون فى الأصل بين كلمة العروبة وكلمة عروبة أو أوربة ، فما أعجب هذا الالتقاء فى مصدر هذين الاسمين ، ولا سيما فى هذا الزمان الذى ابتلى فيه العرب بمطامع الأوربيين .

وأعجب من هذه التسمية أن بعض المستشرقين يردون كلمة « سراسين » Saracens التى يطلقها الأوربيون على العرب إلى كلمة الشرقيين التى كان المغاربة المسلمون يذكرونها ويعنون بها عرب المشرق ، تمييزًا لهم عن عرب المغرب ، وعلى هذا النحو يلتقى الشرق والغرب اللذان لا يلتقيان !.

والأمر الذى يمكن الاتفاق عليه أن تسمية الأمم بالموقع الذى تسكنه بجانب غيرها قول راجح لا محل للاعتراض عليه ، وأن الكثير من أسماء الأمم يطلقها عليها الغرباء عنها ولا يطلقها عليها أبناء الأمة نفسها . وليس ثمة ما يمنع أن تكون كلمة العرب مأخوذة من كلمة العرب بالعين بمعنى الغرب فيما يروى عن اللغات السامية القديمة ثم جرت على لسان العرب بمعنى الإعراب والإفصاح .

ثم نرجع إلى القول المأثور بيننا (أنه لا مشاحة بالأسماء ولا بالمصطلحات) .

فمن الأسماء ما يتسمى به أصحابه وقد جاءهم فى أصله على ألسنة قوم لا يجاملونهم ولا يصطنعون مداراتهم ، وقد عرفت بيوت باسم بيت الأعمى وبيت الأعشى وبيت الجحش وبيت الحمار كما عرفت قبائل وبطون باسم بنى

كلب وبنى ثور وبنى غراب ، ثم نسيت دلالات الكلمات ولم يبق منها إلا أنها أعلام وسمات .

فمن وجوه الاعتراض الضعيفة أن يشك فى الاسم لأنه لا يعجب أصحابه ، أو لأنه جاءهم من غيرهم قبل أن يجيئهم من ألسنتهم ، وقد عرف العرب كيف ينقلون الأغراب إلى الأعراب ولا مشاحة بالأسماء والألقاب .

obeikandl.com